المتنبى وأهيل عصره

يرى بعض النقاد أن الشاعر أو الكاتب أو الروائى هو لسان العصر الناطق وترجمانه الصادق ، وأنه المعبر الأمين عن أحزانه ومسراته وأفكاره ومعتقداته ، وأن دواوين الشعر أو القصص والروايات وسائر الإنتاجات الفنية وثائق تاريخية قيمة وسجلات وافية تتضمن وصف حوادث العصر ورجاله وطبائعه وخصائصه . فالشاعر أو الكاتب الروائى الذى يريد أن يخلد على الدهر ويبقى فى ذاكرة الناس عليه أن يفسر عصره ، ويصف مظاهر حضارته ، ومثله العليا ، ومختلف أحواله ، ومتباين عاداته ، كما فعل شكسبير فى رواياته ، وكما فعل تولستوى فى روايته عن الحرب والسلام ، أوكما فعل أبو تمام والبحترى والمتنبى فى قصائدهم الرائعة التى خلدوا بها حوادث عصرهم ورجاله البارزين . ونحن الآن نعرف الكثير عن إنجلترا فى عهد الملك إدوارد السابع من روايات جالزورثى ، ونفهم حالة ألمانيا قبل الحرب الكبرى الأولى فى رواية بادنبروك التى وضعها توماس مان . والوقت الذى نقضيه فى قراءة قصيدة أو قصة أو فصل من الفصول الأدبية بموجب هذا الرأى لا يذهب عبثاً . وليس سرورنا واستمتاعنا بالاطلاع على الآثار الأدبية والفنية لوناً من ألوان الفرار من الدنيا والإعراض عن مواجهة مشكلاتها وهمومها وأعبائها وإنما هو من قبيل الحرص على الاستفادة ، واستمداد المعلومات التاريخية القيمة ، والحقائق الاجتماعية الثمينة . والأدب بهذه المثابة خادم أمين طيع للتاريخ وعلم الاجتماع ، فهومر يعلمنا أشياء عن اليونان القديمة فى القرن الثامن قبل الميلاد ودانتى يطلعنا على

تصورات الدنيا والآخرة فى العصور الوسطى وراسين يعلمنا أشياء عن العادات فى بلاط لويس الرابع عشر وتولستوى يمدنا بمعلومات عن طبيعة الشعب الروسى . والفنان ثمرة بيئته ونتاج عصره ، فأعظم الفنانين وأقدرهم هو الذى يقدم لنا أصدق صورة للمجتمع الذى صاغه وكونه . وأصحاب هذا الرأى لا يحكمون على الفنان من ناحية براعة فنه وقوة أدائه ، وإنما بمدى دقة وصفه للمجتمع وأحواله فى رواياته أو قصصه أو أشعاره .

وضعف مثل هذا الرأى «الجبرى» الذى يعتبر الأدب إنتاجاً عضوياً للمجتمع ويعده التعبير الأمين عن العصر ظاهر واضح . فعظمة الفن فى أكثر الظروف والحالات قائمة على استقلاله وتفرده وتأبيه على تأثير الجمهور . وفن المعمار وفن الدراما قد يحتاجان إلى الجمهور . ولكن المصور والشاعر والموسيقى والكاتب يستطيعون أن يتخلصوا من سيطرة الجمهور وأحكام البيئة ، ويخلقوا أعمالاً ترضى نزعتهم الفنية ، والفنان العبقرى قد لا يخضع لذوق عصره ولا يرتضى مذهبه وطريقته ويتمرد على معاييره وأحكامه ، ولذا كثيراً ما يكون جزاؤه الإهمال والإعراض والفاقة والحرمان . وقد نعجب بدقة بلزاك فى وصف المجتمع الفرنسى بعد عودة البوربون ، ولكن معاصريه كانوا يرون غير ذلك ويشكون فى صدق تصويره . ومعاصرو فلوبير لم يجدوا سوى القليل من الصدق فى روايته المشهورة «مدام بوڤارى ومعظم معاصرى زولا قالوا عنه إنه قدم صوراً شوهاء لعصره ، وقد نعلم من روايات ديكنز أشياء عن العصر الفيكتورى الأول ولكنه لم يقصد إلى إعطائنا صورة تاريخية صادقة .

وقد نوافق النقاد الذين يعدون الكتاب والشعراء أصدق معبرين عن العصر الذى يعيشون فيه ، ولكن فى شىء من الاحتياط والتحفظ . وأصحاب المواهب العادية المتوسطة هم الذين يرسمون عصورهم كما هى ويكونون ثمرة

للبيئة ، أما الفنانون العظماء فإنهم يخرجون عن آفاق عصرهم ، وطرافتهم لا تلائم ذوق عصرهم . وأمثال فلوبير وبنزاك وديكنز يظهرون لنا معبرين صادقين عن عصرهم لا لأنهم يصورونه بأمانة ودقة ، وإنما لأن عبقريتهم الفنية قد فرضت على الأجيال التالية الصور التى رسموها لعصورهم ، والأحلام التى تراءت لهم .

ولننظر الآن إلى شاعر كبير فى طليعة شعراء العربية والحضارة الإسلامية مثل أبى الطيب المتنبى لنرى كيف تصور أهل عصره - أو أهيل عصره كما كان يحب أن يسميهم من قبيل التنقص والزراية والاستخفاف بهم والتحقير لشأنهم – وهل نستطيع أن نخرج من قصائده بصورة جلية الخطوط واضحة المعالم لأخلاقهم وطباعهم ؟ وقد كان المتنبى يدعى الصدق فى القول ، وقد أكد لنا فى معرض التدليل على استمساكه بالصدق إعراضه عن ستر شيبه وذلك فى قوله :

ومن هوى الصدق فى قولى وعادته ... تركت لون مشيبى غير مخضوب

وقد أولع المتنبى بذم أهل عصره ، ولم يلتزم فى ذلك الاعتدال ولم يتوخ القصد ففى القصيدة اللامية التى مطلعها «لك يا منازل فى القلوب منازل» يقول :

من لى بفهم أهيل عصر يدعى ... أن يحسب الهندى فيهم باقل

ويقول فى قصيدة أخرى فى وصف أهل زمنه :

وإنما نحن فى جيل سواسية ... شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق ... تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن

وفى قصيدة أخرى يقول :

أذم إلى هذا الزمان أهيله ... فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم ... وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

وهى كما يرى القارئ صورة بشعة قاتمة شديدة السواد تدل على أن فرديته الأصيلة وأنانيته الغالبة لم يكونا على وفاق مع عصره . ولسنا نعجب إذا انتهى به الأمر بعد ذلك إلى الرغبة فى سفك دماء أهل عصره كما فى قوله :

ومن عرف الأيام معرفتى بها ... وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ... ولاقى الردى الجارى عليهم بآثم

ومن سخرية الأقدار أن هذا الشاعر الكبير الذى كان سيئ الرأى فى أهل زمنه كانت تفرض عليه ضرورات الحياة أن يعيش مستمطراً جودهم مستظلاً بلوائهم يدبج لهم المديح وينظم فيهم عقود الثناء ويرفعهم إلى مصاف الأبطال ومراتب التأليه . وكان فى بعض الأحيان يبدو فى شعره أثر الحقد الذى كان يتنزى فى نفسه على من مدحهم وأطرى مناقبهم وبالغ فى تقديرهم كما فى قوله :

مدحت قوماً وإن عشنا نظمت لهم ... قصائداً من إناث الخيل والحصن
تحت العجاج قوافيها مضمرة ... إذا تنوشدن لم يدخلن فى أذن
فلا أحارب مدفوعاً إلى جدر ... ولا أصالح مغروراً على دخن

وكان كلما قصد كبيراً من كبراء عصره يؤكد له أنه هو الناس وأنه سينقطع إليه ويقصر مديحه عليه ، وأنه حين مدح غيره إنما كان هو المقصود بالمدح ، وإنما المسألة مسألة اشتباه أو خطأ فى كتابة العنوان ، وأن أسفه شديد على ما ضاع من عمره قبل أن يرى ممدوحه العظيم ويجتلى محياه الباهر وينعم بكرمه السابغ . انظر مثلاً إلى قوله فى مدح الأمير أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج :

كريم لفظت الناس لما بلغته ... كأنهم ما جف من زاد قادم
وكاد سرورى لا يفى بندامتى ... على تركه فى عمرى المتقادم

ولما مدح كافوراً بعد رحيله عن سيف الدولة قال :

وما زال أهل الدهر يشتبهون لى إليك فلما لحت لى لاح فرده

وقال فى القصيدة التى استقبله بها :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

فكان كافور فى بادئ الأمر إنسان عين الزمان قد جمع الله فيه المعانى وقد أدرك المجد بالمجهود العظيم « وبأيام أشبن النواصيا » ومكانته فوق العالمين وإن كان يدنيه منهم التواضع ، ولكنه أصبح بعد سنوات معدودة كما يروى لنا المتنبى :

جوعان يأكل من زادى ويمسكنى لكى يقال عظيم القدر مقصود

وقد قضى المتنبى فترة طويلة من عمره منقطعاً إلى سيف الدولة ومدحه بقصائد من روائع الشعر العربى ، وأعطانا عنه صورة بارعة تمثل البطولة والشجاعة والإباء والكرم والعلم الغزير والمعرفة النافذة ، ولم يترك صفة إنسانية ممتازة إلا حباه بها ، ومع ذلك عاد فشوّه تلك الصورة البديعة فى قوله عنه :

رأيتكم لايصون العرض جاركم ولايدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن

وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن

والرجل الذى لا يستطيع من جاوره أن يصون عرضه لا يستحق أن نسلكه فى عداد الأبطال ، والذى يغضب على من نال رفده لا يعد من الكرام ، فلسنا ندرى أنصدق المتنبى فى حكمه على سيف الدولة وكافور حين إقباله عليهما ورضاه عنهما أم فى حكمه عليهما حينما غضب وثار وغلت مراجله وطغت أحقاده على أصالة منطقة وسداد تفكيره ؟ .

ولو كان عصر المتنبى من الحقارة والمهانة كما يصفه لنا لكان من حقنا أن

نشك فى أكثر الصفات التى يخلعها على ممدوحيه على أننا لا نستطيع أن نعتمد على تلك الصور التى رسمها لمعاصريه . ولابد لنا من الرجوع إلى مؤرخى عصره لتصحيح الصورة وتحرى الحقيقة . وصورة كافور الإخشيدى التى يقدمها لنا المؤرخون تختلف عن الصورة التى قدمها لنا المتنبى حينما غضب عليه ولفحه بشواظ هجائه . وإنى أرجح أن الصورة التى قدمها المؤرخون أقرب إلى الحق من الصورة التى رسمها لنا المتنبى . والمؤرخون بوجه عام أكثر تحرياً للحقائق من الشعراء ، لأنهم أهدأ منهم نفساً وأقدر على كبح نوازعهم وأهوائهم . وقد كنت أقرأ من أيام فى الدراسة القيمة التى تناول بها الأستاذ نجيب البهبيتى حياة أبى تمام وشعره ، وقد أعجبنى من الأستاذ أنه لم يؤخذ بسحر أبى تمام فى القصيدة الرائية البديعة التى وصف بها صلب الأفشين وحرق جثته ، فهذه القصيدة ومطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

من أبلغ شعر أبى تمام وأقواه ، بل هى من القصائد الرصينة الدقيقة البناء البارعة الوصف المحكمة النسج الممتازة فى الأدب العربى جميعه ، ولكنها مع ذلك تنطوى على أحكام صارمة فى قضية الأفشين لم يقرها المؤرخون : وأنا أرى رأى الأستاذ فى أن تصوير المؤرخ ابن الأثير لهذه القضية أقرب إلى الحق من تصوير أبى تمام على بلاغته وإعجازه . والحقيقة أن الشعراء وسائر رجال الفنون قوم مشبوبو الأحاسيس مهتاجو العواطف ، وكثيراً ما تغمر فكرهم وتغطى على قلوبهم عواطفهم المضطربة وميولهم ونزعاتهم ، وهم بحسهم المرهف وزكانتهم المتوقدة وأسلوبهم الشف الناصع وألمعية فراستهم وقدرتهم الفنية يقدمون لنا صوراً براقة لامعة ساحرة أخاذة ، ولكننا حريون أن نعلم أنهم قد لا يلتزمون الاعتدال ، ولا يتوخون الإنصاف ، ويستخفون بالتبعة ، ويعتمدون على بديهتهم المطاوعة ، وخاطرهم الحاضر ، وفطنتهم النافذة ، فلا يتعمقون

ولا يستقصون ، بل قد يتعصبون ويتحزبون ، فلا ينظرون الأمور والأشخاص بصدق روية ولا بعين جلية ، فإذا أردنا أن نفهم الحضارات السالفة ونتمثل رجالها وآثارها فليس يكفى الاعتماد على الشعراء ، وإنما لابد لنا من المقابلة بين أقوالهم وأقوال المؤرخين حتى لا نخدع بصورهم الجميلة وفنهم الساحر .